الفصل الأول

صابئة حران

- من هم الصابئة، وكيف ينظرون إلى أنفسهم؟
- الفرق بين صابئة حران والصابئة المندائية.

صابئة حران

من هم الصابئة؟

ـ أصل التسمية جاء من قولهم: صبأت إذا خرجت من شيء إلى شيء. والصابئون هم الخارجون من دين إلى دين.(١) أما في اللغة الآرامية فكلمة (صبا) أو (صبع) تعني الاغتسال بالماء الجاري، وكان صابئة العراق يعرفون بالمغتسلة. قال ابن النديم: وكان بنواحي دست ميسان، قوم يعرفون بالمغتسلة وبتلك النواحي والبطائح بقاياهم، إلى وقتنا هذا [أي عام ٣٨٠ هـ (٩٩١ م)] وهم يطلقون على أنفسهم اسم (المندائية) لأن كلمة منداي الآرامية تعني العارف المشتق من الفعل (مدّعا) أي عرف وعلم(٢).

وقد ورد اسمهم في القرآن الكريم بين طوائف المؤمنين، قال تعالى «إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون»(٣). وكان مشركو قريش يقولون عن محمد (ص) في بدء الدعوة (صبأ محمد). ذكر المقريزي في كتابه إمتاع الأسماع قال سهيل بن عمرو: يا آل غالب ـ أتاركون أنتم محمداً والصبأة من أهل يثرب يأخذون عيرانكم وأموالكم؟(٤) وكان السريان يطلقون على صابئة حران والمنادائية، معاً أسماء مختلفة ومنها (الوثنيون) وكانت كلمة وثني Paganus تعني الفلاح ثم صارت تعني عابد الأوثان، لأن فلاحي الرُّها ظلوا متعلقين بعبادتهم الشعبية القديمة، (الوثنية)، وقد أطلق عليهم اسم (الكِلدان) أو عبدة الكواكب. قال القس بطرس نصري الكلداني: «وصار اسم الكلدان كناية عن الماهرين في علم الهيئة، وملاحظة النجوم، وبعد ذلك استعير الاسم للدلالة على العرافين والمشتغلين في الكهانة، والفأل المحرم، وصار الاسم يشير إلى عبدة الأوثان، ثم انتقل إليهم الاسم اليوناني (باجانوس) الذي هو بمعنى وثني»(٥).

وقد فرق المسعودي بين الصابئة الحرانية والكيمارية الذين كانت ديارهم بلاد واسط والبصرة، من أرض العراق نحو البطائح(٦). وأكد ذلك الرحالة المغربي (ابن سعيد المغربي) في كتابه الجغرافيا. قال: «وأهل البطائح معظمهم من الكلدانيين ويسمونهم الصابئة»(٧). وهؤلاء الصابئة لا زالوا يعيشون جنوب العراق في منطقة العمارة، وفي الأهواز. ويذكرون «أن المدعو (أنوش بن دنقا) قابل سعد بن أبي وقاص عام ١٨ هـ/ ٦٤٠/ وشرح له خلاصة مذهبهم، وحصل منه على (عهد الأمان) له ولأتباعه، وأدوا الجزية»(٨).

ما علاقة صابئة حران بصابئة البطائح؟

أجاب الباحثون على هذا السؤال إجابات مختلفة ومتناقضة.

قال المستشرق الأوراكييني خولسون الذي تخصص بدراسة صابئة حران: «إن الحرانيين لم تكن لهم وحدة مع المندائيين لأن الحرانيين عبدة كواكب، بينما يبغض المندائيون عبدة الكواكب»(٩). وقد وافقه على رأيه أوليري الذي اعتبر أن الصابئة الحقيقيين كانوا في جنوب العراق ولا علاقة لهم بحران. ولكن الليدي دراور الباحثة التي درست عقيدة الصابئة المندائية، وعاشت معهم وأتقنت لهجتهم الآرامية ورطانتهم العربية، قالت: «ففي جملة ما أورده المؤلفون العرب من روايات يوجد فيها قدر لابأس فيه من الحقيقة، تشير إلى أن لدى الحرانيين ما يشتركون به مع الصابئة المندائية الذين يسكنون أهوار جنوب العراق(١٠).

فلنرجع إلى المصادر السريانية والعربية معاً، ونحكم على مدى علاقتهم ببعضهم! قال مار يعقوب الرهاوي (توفي ٧٠٨م): وقد ورد في كتب الكلدانيين (يعني الصابئة) قولهم: إن السماء والأرض والشمس والقمر وسائر الكواكب هي أزلية غير مخلوقة، وهم آلهة وأرباب، وهم سادة هذا العالم وموَّلوه اهتمامهم، إن العالم قد خلق برفرفة روح الإله، وهم يحتفظون من حيث يدرون أو لا يدرون بظلال تشابيه ونماذج تتوافق مع ما تقول به المسيحية، فهم يقولون: «في البدء كان كل شيء ظلاماً ومياهاً قبل أن يكون هناك آلهة وبشر وكان الروح يرفرف فوق المياه السائلة، قال الروح: فخلقت هذه كلها، ووضعت لهم سماء وأرضاً وأبراجاً، صورت فيها تماثيل جعلتها وجهات لمسيرتهم، ثم خلقت بيل (بعل) أولاً وبعده مارود (مردوك) سيداً للآلهة، ومن ثم البقية، وجعلت الشمس والقمر سلاطين على الليل والنهار. وهكذا جاء كلامهم مطابقاً لكلام الحق»(١١). لقد ذكرهم هنا مار يعقوب باسم الكلدان ثم ذكرهم مرة أخرى باسم الحرانيين. قال: «نورد حديث أحد العلماء الحرانيين ذائعي الصيت الذي كان يدافع بشدة عن القضاء والقدر من الكواكب السبعة والذي يشمل كل ما يحدث في هذا الكون مفنداً حجج العالم (ولغش الرهاوي) أحد أتباع برديصان الذي كان يعارضه في مسألة القدر محاولاً تسفيهه ببراهين من الطبيعة»(١٢). وقال ابن الجوزي عنهم: «اشتغلوا بالتنجيم والسحر وقالوا: لا بد من متوسط بين الله وبين خلقه في تعريف المعارف والإرشاد للمصالح إلا أن ذلك المتوسط ينبغي أن يكون روحانياً لا جسمانياً، وهذا الوسيط هو الفلك القديم الذي لا صانع له(١٣) وهذا الفلك حي، والسماء حيوان، وفي كل كوكب نفس، والنجوم تؤثر في النفوس وإنها حية فعّالة»(١٤). وعندما فسّر الألوسي كلمة (الصابئة) التي ورد ذكرها في القرآن الكريم قال: هم قوم مدار مذهبهم التعصب للروحانيات، واتخاذهم لها وسائط. وهم فرقتان ـ عبدة الكواكب وعبدة الأصنام ـ وكل من هاتين الفرقتين أصناف شتى مختلفون في الاعتقادات والتعبدات.

كيف نظر الصابئة إلى أنفسهم؟

جاء في كتاب للصابئة المندائية عنوانه (حران كويثة) أي حران السفلى إنهم جاؤوا إلى بطائح البصرة، من مدينة حران وما حولها من جبال ماداي، حيث الينابيع الساخنة في الشتاء والباردة

في الصيف(١٥). وهذا الوصف ينطبق على منابع نهر البليخ التي يسميها العرب بعين الذهبانية والتي ندعوها اليوم عينِ عروس، حيث يوجد مقام إبراهيم الخليل ومياه هذه العين الصافية باردِة، وإلى شرقها قليلاً نبع مياه كبريتي يسبح فيه الناس للاستشفاء وهو حار في الشتاء. وقد جفّت العين منذ عام ١٩٩١، ولا أثر للمياه فيها الآن.

قال ثابت بن قرة الحراني في كتابه عن (مشاهير أسرته وسلسلة آبائه): «لقد اضطر الكثيرون منهم أن ينقادوا للضلال خوفاً من العذاب [يشير بهذا إلى الحادثة التي أسلم فيها الكثيرون عندما مر المأمون بهم عام ٢١٨هـ/ ٩٣٣م]. أما آباؤهم فقد احتملوا ما احتملوا بعونه تعالى ونجوا ببسالة، ولم تتدنس مدينة حران، هذه المدينة المباركة بضلال الناصرة قطعا. فنحن الوارثون والموروثون للصابئة المنتشرة في الدنيا، فالذي يحتمل برجاء وثيق أثقال الصابئة، يعد ذا حظ سعيد. ليت شعري من عمّر المسكونة وابتنى المدن، أليس خيرة الصابئة وملوكهم؟ من أسس المرافئ والأنهار والقنوات. ومن شرح العلوم الغامضة؟ لمن تجلّت الألوهية الملقنة للكهانة، والمُعْلِمة للمستقبلات إلا لمشاهير الصابئة..؟ فهم الذين أوضحوا ذلك كله وكتبوا عن طب النفوس وخلاصها، ولقنوا كذلك طب الأجساد وملؤوا الدنيا أعمالاً صالحة وحكيمة، هي دعامة الفضيلة. فلولا علوم الصابئة لأمست الدنيا قفراء فارغة متقلبة في العوز»(١٦).

يشير هذا النص التاريخي إلى عدة حقائق:

ـ اعتزاز الصابئي الحراني بماضيه، وافتخاره بانتمائه الديني، وبأصوله السلالية في زمن بدأ يتداعى فيه ذلك الصرح من المجد، ويعلن الكثيرون عن إسلامهم (لقد اضطر الكثيرون أن ينقادوا للضلال خوفاً من العذاب) بعد أن حافظوا على طهارة حران من الدنس وضلال الناصرة (المسيحية) مدة من الزمن. سألني أحدهم كيف كان ثابت بن قرة والبتاني وهما من عباقرة الرجال يؤمنان بتلك الديانة الوثنية النجومية. فأسعفني الحظ بقول لجوته أورده على لسان إبليس في رائعته فاوست. قال: «ما الشرائع والقوانين سوى أمراض مزمنة متوارثة تركها لنا آباؤنا وأجدادنا، واسلمها السلف للخلف، فانتقلت عدواها من جيل إلى جيل ومن بلد إلى بلد، ثم يمضي الزمن فتصبح حكمتها خرافة وصالحها خبثاً»(١٧).

ومثل ذلك ما قاله المفكر المصري سمير أمين «إن التاريخ أثبت أن الأديان قادرة على أن تعيش طويلاً بعد أن تتغير الظروف التي نشأت فيها»(١٨).

ـ تأكيد ثابت بن قرة على وحدة ديانة الصابئة (الحرانية والمندائية) بقوله (نحن الوارثون والمورِّثون للصابئة المنتشرة في الدنيا).

ـ أشار ثابت بن قرة إلى أصل سلالته الحرانية، بأنهم من أصول يونانية أو رومانية بقوله: من عمّر المسكونة، وابتنى المدن أليس خيرة الصابئة وملوكهم؟

ـ ويشير النص إلى الموروث اليوناني الذي ورثه الصابئة من كهانة تنبئ عن المستقبل، وحكمة وطب للنفوس وطب للأجساد، ولولا علومهم لأمست الدنيا قفراء فارغة، متقلبة في العوز والجهل. وإلى ذلك أشار المسعودي عندما دعاهم «عوام اليونان، وحشوية الفلاسفة المتقدمين»(١٩).

ويظل النص يحمل الخوف من المستقبل ويتوجس اندثار هذه الطائفة الذين احتملوا ما احتملوا بعونه تعالى ونجوا ببسالة وأنه لسعيد الحظ من يحتمل برجاء وثيق أثقالهم الراهنة.

من هم صابئة حران؟

هم قوم من أصول يونانية وآرامية عاشوا في حران وما حولها، وكانوا يتكلمون اللغة الآرامية التي حوت آمالهم وأفراحهم وكانوا يتبعون ديانة نجومية سرية، لها أسرارها وطقوسها، ومن يتح له الاطلاع على أسرارها يبلغ الخلاص. وكانت تقبل الأتباع باحتفالات خاصة، أما المطلع على الأسرار فيصعد بعد الموت، إلى العالم الإلهي ويسكن مع الآلهة. وكانوا يمارسون طقوسهم في معابدهم، أو في الخلاء، حول العيون والمياه الجارية، ولهم لباس خاص بهم يميزهم عمن حولهم.

ذكرت رسائل إخوان هذه الطائفة. قالوا: «إن آخر ما سمعنا عمن ادعى علوم الطلسمات وأفعالها ممن نقلت إلينا أخبارهم وبلغنا آثارهم اليونانيون، وهؤلاء لهم عند الناس أسماء مختلفة فمنها (الصابئون والحرانيون والحنوفون (أي الأحناف) وقد أخذوا أصول علومهم عن السريانيين وعن المصريين على حسب نقل الصنائع والعلوم في البلدان، بما يحدث لها من السياسات والأديان وقد كان رؤساء أوائلهم (عاذيمون وهرمس) ثم تفرقت جيوشهم إلى الفيثاغورية والأفلاطونية والأرسطوية والأبيقورية، وهم يزعمون:

- أن العالم متناه في مساحته إلا أنه كري (كروي) الشكل. وأن ليس للوجود مبدأ ثان وإنما هو متعلق بالباري تعالى، تعلق المعلول بعلته، وأن العالم الأرضي تتم أموره بأشياء:
- إحداها: المادة القابلة للمزاج والتأليف وهي العناصر الأربعة.
- والثاني: النفوس المحركة والساكنة في أشخاصه.
- والثالث: تحريك العالم السماوي (عالم الأفلاك) للعناصر الأربعة المتولدات منها حتى تتهيأ لقبول تأثيرات الأنفس من التحريك والتسكين، والجمع والتفريق، والحر والبرد والرطوبة واليبس، التي تمكن الصانع من تأثيرات الصفة في المادة لكل مصنوع.
- والرابع: حفظ الإله العظيم سبحانه وتعالى، لقوى جميع الموجودات وإمدادها بالعون لها، وتتميمه لأغراضها ومقاصدها وقسمة الأمور الموجودة على الكواكب السبعة.
- وزعموا أن الكواكب الثابتة مقسومة على الكواكب السيارة ممتزجة من قواها ومعينة لها على أفعالها.
- وزعموا أن الفلك التاسع المماس لفلك الكواكب الثابتة وهو المنتهي لفلك البروج مصور بصور تخصه، وأن كل درجة من درجاته تنقسم إلى قسمين:

أحدهما في الشمال، والآخر في الجنوب.

وفي فلك البروج صور قد وُقِّت عليها من خلال التأثيرات العارضة عليها على طول الزمان على ما يذكره أصحاب الطلسمات»(٢٠)

والصابئة المندائية كالحرانية، يعتقدون أن النجوم والكواكب تحتوي على مخلوقات حية وأرواح ثانوية لأمر ملك النور وإنها تتحكم بمصائر البشر، ويصاحب هذه الأرواح الخيرة أضدادها من الأرواح الشريرة ففي فلك الشمس ينتصب (شامش) الإله الخير النافع رمز الخصب والخضرة، ومعه الروح الشرير المهلك (أودوناي) إله الظلمة مع أرواح نورانية حارسة أخرى.(٢١) وترتكز اعتقاداتهم على ثلاثة أمور جوهرية:

١ ـ الماء الجاري (يردنه) وهو رمز الحياة العظمى.

٢ ـ الروح خالدة، لها صلة بأرواح أسلافها وتعيش على صدقات الأهل أو قرابين الموتى (اللوفاني) وهو عشاء الموتى بالآرامية.

٣ ـ الخضوع لما يقوله الكهنة الموكلون بالكتب المقدسة.

ويقسمون أتباعهم إلى ثلاث فئات:

الفئة الأولى: ـ فئة الكهنة الكبار وعلى رأسهم الكاهن الأعلى وهو من بيت الرئاسة ملك بن ملك (ريشْ أَمَهْ) أي رأس الأمة. وإن التاج الذي يضعه على رأسه في القداس رمز لعمله كحاكم، ومشرّع وزعيم لهم في الشؤون الزمنية والروحية، وعليه فيجب أن يكون تام الأوصاف غير موصوف بجذام أو مختون أو خصي. ويتسلم ديانته منذ صغره ويتعلم الطقوس ولا يحلق شعره، ويتعلم مبادئ علم الهيئة، وأحكام النجوم. ومراقبة علامات السماء والبروج ليصبح منجماً في الكبر.(٢٢)

الفئة الثانية: ـ فئة الناصوريين. وهم طبقة الكهنة (عامة رجال الدين) وهم المسؤولون عن حفظ الدين وإقامة شعائره، ويدعى كل واحد منهم (الكنزفرة). يتعاطون الصناعات الحرفية الدقيقة كالصياغة وحرفة التنجيم وكتابة الرقى والطبابة.

الفئة الثالثة: ـ فئة العامة (المندائية). الذين يطلعون على أسرار الدين، ومعتقداته الخفية، ويسهمون في مساعدة رجال الدين ويتعاطون الحرف والزراعة والتجارة.

يُسَمّي الكتّاب الغربيون طائفة المندائيين باسم نصارى يوحنا المعمدان(٢٣). وكان المسلمون يعدونهم من عبدة الملائكة. قال الزمخشري في كشافه (إنهم قوم عدلوا عن دين اليهودية والنصرانية وعبدوا الملائكة). أما الباحث العراقي عبد الرزاق الحسيني فقد قال عنهم قولين متناقضين ـ قال عنهم في المرة الأولى: إنهم عبدة الكواكب، ثم عدل عن رأيه هذا بعد أن اطلع على حقيقة دينهم، قال: يؤمنون بالخالق جل شأنه أنه واحد أزلي أبدي لا أول لوجوده، ولا نهاية له، منزه عن المادة والطبيعة، ولا تناله الحواس ولا يفضي إليه مخلوق، وإنه لم يلد ولم يولد، وهو علة وجود الأشياء، ومكونها ولا يختلف اعتقادهم في الخالق عن اعتقاد المؤمنين(٢٤). وإلى مثل هذا الرأي ذهب الكندي عندما قال: دعوة هؤلاء القوم واحدة وسنتهم وشرائعهم غير مختلفة، جعلوا قبلتهم واحدة بأن صيّروها نحو القطب الشمالي في سفرة العقلاء، قصدوا بذلك البحث عن الحكمة ولزموا فضائل النفس الأربع(٢٥).

كيف يطّلع اليافع على أسرار المذهب؟

كل ديانة مغلقة ذات أسرار تهيّيء أفرادها لاستلام دينهم ضمن طقوس خاصة تتم في المعبد في يوم يحدده الكاهن طبقاً لأحكام ديانتهم السرية. وكان الحرانية يوصون أتباعهم بقولهم: «لا يكون اعتقاد أهلك وذريتك وأزواجك وبنيك مخالفاً لما يظهر من اعتقادك لأصحابك وإخوانك. كيف يجوز للعاقل العالم أن يتدين بمذهب هو يأمر بخلافه؟ بل الواجب عليه أن يكون أهله وأصحابه بمنزلة واحدة عنده في التعليم»(٢٦).

وفي يوم معلوم يجمع رئيس الكهنة كل الأحداث الذين يودون سماع السر عند الصباح الباكر، فيعرّي أحدهم ويقبض كاهنان على عضده ويدخلانه وهو مشدود العصابة (على عينيه) ويمشي القهقرى حتى يصل إلى بيت رئيس الكهنة في المعبد فيدخل ويطبق الباب، والسُرُج تتقد والمجامر تدخن بأنواع البخور العطرة.

يقول رئيس الكهنة: أتحب أن تدخل فتسمع ملائكتنا؟

يجيب الحدث: نعم..!

رئيس الكهنة: إن أقمت على ديني وحفظت سري فإن رأسك بين أصحابك يكون عالياً، وإكليلك ثابتاً.

ثم يخاطب رئيس الكهنة كفيله: أتكفل أنت إقامته على ديني وحفظ سري؟

الكفيل: نعم..!

يضع الكاهن الأكبر الحدث على بساط قدّام المائدة، على جانبه الأيسر ويتلو على رأسه أسماء الملائكة مرتبة وهي ٨٧ اسماً وعلى رأسهم (جرجاس) رئيس الأبالسة. ويتابع الكاهن الأكبر قوله: طوباك إذا صرت من أهل الاستماع لهذه الأسرار فإن الله يطهرك.

- ثم يتناول سكيناً ليذبحه. فيتقدم الكفيل ويقدم خاتمه رهناً عنه.. ويقول: إنه سيحفظ المناسك ويقيم على الدعوة ويكتم السر.

يعيد الكاهن الأكبر إليه خاتمه ويأخذ الديك. ويقول له: إني أقبله نفساً بدل نفس وأندبه بين يدي الشمس المحببة للنفوس، وجرجاس رئيس الأبالسة. ويقوم بعملية ذبح رمزية للطفل ولكنه يذبح الديك الموضوع على عنق الغلام وهو يتمتم: يا جرجاس اقبل هذه الذبيحة واترك هذا الغلام لأبويه وللملائكة، ثم يحمي على السراج خاتماً من حديد ويكوي الطفل على إبهام يده اليمنى، مكرراً ذلك (٩٩) مرة ويكويه ببعض عيدان الطرفاء كياً لطيفاً على صدره وجبهته. ثم يلبسه ثياباً جديدة بيضاء وخفاً من جلود قرابين الملائكة. ويشد وسطه بعمامة ويعطيه فصاً من ملح على صورة مثلث.

- في هذه العملية (عملية ذبح الديك) رمز إلى فداء إبراهيم ابنه بذبح عظيم إلا أنهم ذبحوا ديكاً بدلاً من الكبش لأن سقراط الحكيم أوصى عند موته «اذبحوا عني ديكاً في الهيكل فإنه نذر علي»(٢٧) ثم يحفظون الجناح الأيسر من الديك الذي ذبح في بيت سر الرجال، ويعلقونه على الحوامل، وعلى أعناق الصبيان على سبيل الحرز(٢٨) أو التميمة.

ثم يُسمِّعهم الكاهن الأكبر السر وهو صنف من الكلام، أطول من سوّر القرآن الطوال، وهناك سر الرجال لا يسمعه إلا الرجال، وسر النساء لا تسمعه إلا النساء. وكلاهما متساويان في عدد الألفاظ والحروف(٢٩).

أما كيف ظلت هذه الذكرى في مخيلة القاضي محمد بن عيشون الحراني (المتوفى ٣٠٠هـ/ ٩١٢م) فقد كان هو وعائلته صابئياً ثم أسلم، ذكر بيت السر وما تحته من السراديب الأربعة المتخذة لأنواع صور الأصنام والتي جعلت مثالاً للأجسام السماوية وما ارتفع من ذلك من الأشخاص العلوية وأسرار هذه الأصنام وكيفية إيرادهم لأطفالهم إلى هذه السراديب وعرضهم لهم على هذه الأصنام وما يحدث ذلك في ألوان صبيانهم من الاستحالة إلى الصفرة وغيرها لما يسمعون من ظهور أنواع الأصوات وفنون اللغات من تلك الأصنام والأشخاص، بحيل قد اتخذت ومنافيخ قد عملت، تقف السدنة (الكهنة) من وراء جدران فتتكلم بأنواع من الكلام فتجري الأصوات في تلك المنافيخ والمخاريق والمنافذ إلى تلك الصور المجوفة والأصنام المشخّصة فيظهر منها نطق على حسب ما قد عمل في قديم الزمان، فيصطادون به العقول وتسترق بها الرقاب ويقام بها الملك والممالك. ولابن عيشون قصيدة طويلة يذكر فيها مذهبهم ومخاريقهم على العوام. قال(٣١):

إن نفيس العجائب بيت لهم في سرداب
تُعبد فيه الكواكب أصنامهم من خلف غائب

وقد أشار اليعقوبي إلى طريقتهم في خداع العوام، قال: وكانوا يخدعون عوامهم بأن الآلهة تنزل في هذه الأصنام وتكلمهم وتنبئهم بما سيحدث(٣١).

هل لهذه الروايات من سند تاريخي؟ أم هي تقولات العامة المناوئين للحرانية؟

نعم. إن لهذه الروايات سند تاريخي، فقد ذكر لوسيان السميساطي ذلك في رسالته المسماة (ألكسندروس أو النبي الكاذب) وقد كان ألكسندروس أحد الكهنة الكاشفين لطوالع الغيب في معبد الإله إسقلابيوس (في حران) وقد (توفي ١٧٠م). كان ألكسندروس يرد على الأسئلة التي يتلقاها في المعبد ويرد عليها بهاتف صوتي يخرج من جهاز مؤلف من عدة مواسير ركبت بشكل خاص ضمن جدران المعبد، وكان هذا الهاتف يكلف كثيراً طالبي أسرار المستقبل وقد سأله الإمبراطور ماركوس أوريليوس (١٦٤ - ١٨٠) الفيلسوف الرواقي النابه الذكر، إذ طلب منه أن يخبره عن طالع حملته على البرابرة فأخبره بأن يلقي في نهر الدانوب بأسدين ففعل وتم له النصر كما قال الهاتف. وعن هذه الحادثة وأمثالها قال ثابت بن قرة (لمن تجلت الألوهية الملقنة الكهانة، والمعلمة المستقبلات إلا لمشاهير الصابئة؟»(٣٢). لقد اشتهر معبد حران بهواتف الغيب، مما اضطر الإمبراطور قسطنطين الثاني سنة ٣٥٧م إلى إصدار أمر يقضي بوضع حد لقيام رجال البلاط الإمبراطوري باستشارة مصادر الوحي والعرافين ومفسري الأحلام وغير ذلك من أرباب النبوءات. وصار الموظف يعذب إذا ما وجه إليه مثل هذا الاتهام بمزاولة مثل هذه العادات(٣٣). كانت العرب تعتقد مثل الحرانية. باستطلاع الغيب عن طريق الجان فقد نقل عن هشام بن المسيب عن ابن عباس قوله «كانت العُزّى شيطانة تأتي ثلاث تمرات ببطن نخلة، فلما افتتحها خالد بن الوليد، عضد الثالثة

منها بأمر رسول الله (ص) فإذا هو بجنية نافشة شعرها واضعة يديها على عاتقها تصر بأنيابها وخلفها دبية السلمي، وكان سادنها، فقال خالد:

يا عز كفرانك لا سبحانك إني رأيت الله قد أهانك

ثم ضربها ففلق رأسها فإذا هي رماد، ثم عضد الشجرة، وقتل دبية السادن»(٣٤). زار أبو الحسين المسعودي مدينة حران في صيف سنة (٣٣٢هـ/ ٩٤٤م) وحكى له رجل من ملكية النصارى (الروم الأرثوذوكس) يعرف بالحارث بن سنباط وكان ذا معرفة ودراية بمذاهب الصابئة الحرانيين، إن لهم هياكل على أسماء الجواهر العقلية أو الكواكب فمن ذلك هيكل العقل وهيكل الصورة وهيكل النفس وهذه مدورات الشكل، وهيكل زحل مسدس، وهيكل المشتري مثلث، وهيكل المريخ مربع مستطيل، وهيكل الشمس مربع، وهيكل عطارد مثلث الشكل، وهيكل الزهرة مثلث في جوف مربع مستطيل، وهيكل القمر مثمن الشكل. وللصابئة فيما ذكروا رموز وأسرار يخفونها ويقدمون لهذه الهياكل قرابين يقربونها من الحيوان، ومن دخان البخور للكواكب يبخرون لها، لأن هذه الكواكب هي التي تهبهم طول الأعمار وقصرها، وظهور المياه وغيضها(٣٥). وقد كانت هذه الأصنام أو الهياكل أجساماً حية ناطقة وإن الملائكة تختلف فيما بينها وبين الله وإن كل ما يحدث في هذا العالم يجري على قدر ما تجري به الكواكب عن أمر الله فعظموها وقربوا لها القرابين لتنفعهم، وبنوا لكل صنم بيتاً وهيكلاً مفرداً وقد ذهب قوم منهم إلى أن البيت الحرام هو بيت زحل وما طول بقاء هذا البيت على مرور الدهور معظماً إلا لأن زحل من شأنه البقاء والثبوت(٣٦).

وقد شاهد المسعودي بيت أنطاكية، الذي تزعم الصابئة أن الذي بناه هو (سقلابيوس) إله الطب عند اليونان، وهو يقع في سوق الجزارين وشاهد مكتوباً على باب مجمعهم بالسريانية قولاً فسّره له مالك بن عقبون الصابئي وغيره من الصابئة (من عرف ذاته تأله)(٣٧). وقد شاهد هذا المعبد أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير (٥٣٩ ـ ٦١٤ هـ) في يوم الاثنين ١٨ حزيران عام ١١٨٥م الموافق ١٧ ربيع الأول ٥٨٠ هـ. ولم يكن قد بقي من الصابئة أحد لأن الجميع قد أسلموا وكان أهل حران من أهل الخير، هينين معتدلين محبّين للغرباء مؤثرين للفقراء(٣٨) وقد بقيت آثار هذا المعبد في الجهة الشرقية من حران، وهو يبدو كأنه قلعة محصنة حولها خندق وسور من الحجارة المركومة في نهاية الوثاقة والقوة(٣٩).

كيف يخططون لمعابدهم ويوجهون قبلتهم؟

قال أبو سليمان السجستاني البصري: إن الحرانية هم المعروفون بالصابئة وكانوا يسكنون مدينة حران ويتخذون لهم أصناماً على مثل الهياكل السبعة، كل شخص (أي تمثال) في مقابل هيكل وكانوا يسمون الكواكب آباء، والعناصر الأربعة أمهات(٤٠) ويقدّمون لها القرابين والصلوات لاعتقادهم أن الهياكل أبدان الروحانيات(٤١). وقد اعتمدوا على علم الهيئة في توجيه وبناء هذه المعابد. قال إخوان الصفا: ينتظرون حصول ذلك الكوكب الذي يريدون بناء هيكل له كما هو

موجود في كتب الأحكام، فيبدؤون في بناء ذلك الهيكل، لذلك الكوكب لتلك المدينة التي يكون ذلك الخط مقصوراً عليها، ثم صوروا معه مرائيه من الكواكب والصور التي تكون في درجته ووضعوها في ذلك الهيكل وجعلوا ذلك اليوم من كل سنة عيداً لذلك الكوكب في ذلك الهيكل(٤٢). ثم يبنون الهيكل ويقسمونه إلى قسمين أحدهما للرجال والآخر للنساء وفي كل قسم بيت عظيم ليس في حيطانه ثقب ولا في بابه شق، حتى إذا أغلق بابه لم يبق من الضوء شيء البتة. وجعلوا بابه مما يلي الجنوب، وصدره مما يلي الشمال وصوروا فيه البروج الاثني عشر وعملوا صور الكواكب السيارة، كل واحد منها معمول من المادة الموافقة، كالشمس من الذهب، والقمر من الفضة، وزحل من الحديد، والمشتري من الزئبق، والمريخ من النحاس، والزهرة من الرصاص القلعي (الجيد) وعطارد من الرصاص الرديء (الأسرب). وجعلوا تحت كل منها مجمرة من طين أحمر، ولها بخور مفرد فالتي للشمس العود، والتي للقمر الكلبة (من أعشاب حران) والتي لزحل الميعة (عطر طيب الرائحة) والتي للمشتري العنبر، والتي للمريخ السندروس (وهو صمغ شجرة من أرمينية) والتي للزهرة الزعفران، والتي لعطارد المصطكى(٤٣) وعن شمال هيكل كل كوكب إبريق شراب وثلاثة قضبان طوال من خشب الطرفاء، وقد قطعت من شجرتها قبل صياح الديك، وسكين حديد نصابها منه (لذبح ديك السر)، وخاتم حديد فصه منه لطيف في قدر الظفر، منقوش عليه صورة جرجاس رئيس الأبالسة(٤٤). قال الهمداني: لحران من الكواكب الزهرة ومن البروج السنبلة وعطارد(٤٥) أما ضوء المعبد وإنارته فتصدر عن سُرج الزيت الكثيرة العدد. وعلى جدران الهيكل (صورة الغلوطي) ملك الهاوية وصورة (فوسدور) ملك البحار وصورة (لموجاس) ملك الرياح وصورة (ليمس) الملك الموكل بالروائح العارضة من الجن وصورة (القرطوس) ملك الأمواج وعدد الصور الإجمالي بالهيكل ٨٧ صورة(٤٦).

هذه الديانة السحرية النجومية كانت معروفة في الحضارة اليونانية وقد بقيت تمارس في طقوس سرية حتى عصر جوته فقد قال على لسان فاوست: «أول ما يجب عمله تلقاء هذا الحيوان أن أتلو تعزيمة العفاريت الأربعة:

- ليحترق ساكن النار (سمندر). يا ساكن النار التهب التهاباً.
- ولينهزم عفريت الماء (أندينه). يا عفريت الماء فلتنصب انصباباً.
- ليحتف عفريت الهواء (سيلفا). يا عفريت الهواء المع كالشهاب الساطع.
- وليحل الفناء بعفريت التراب (كولولر). يا عفريت التراب منك المعونة أبداً، أقصر الآن وتقدم إلى الأمام(٤٧). بمثل هذه العبارات الغامضة الموحية بالأسرار السحرية كانت تتلى التعازيم على رؤوس سامعي السر من الرجال والنساء.

حاولت رسائل إخوان الصفا وكتب الكندي والبيروني الدفاع عن عقيدة الصابئة الحرانية، عندما قالوا: إن عبادة الأصنام لا تتعارض مع توحيدهم لله.

قال إخوان الصفا: إن بدء عبادة الأمم للأصنام أولاً كان عبادة الكواكب، وبدء عبادة الكواكب، كان عبادة الملائكة، وسبب عبادة الملائكة كان التوسل بهم إلى الله لأنهم الحكماء

والربانيون والعارفون بـالله حـق معرفتـه، وانقرضـوا وخلفهـم قـوم آخـرون أرادوا الاقتـداء بهـم في سيرتهم واتخذوا أصناماً على مثل صورهم وصوروا تماثيل على مثل مـا فعلـت النصـارى في بيعهـم مثل أشباه المسيح ومريم عليهما السلام(٤٨).

فالصابئة الحرانية هم موحدون، وما هذه التماثيل إلا لتقربهم إلى الله زلفى.